سُورةُ النَّازِعاتِ
من آية (15) إلى آية (26)
الجزء الثاني

المعنى الإجمالي من الآية (1) إلى الآية (14): افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقْسِمًا على وُقوعِ البَعْثِ بلا شَكٍّ، فأقسَمَ بالملائِكةِ الَّتي تَنزِعُ أرواحَ الكُفَّارِ مِن أبْدانِهم نَزْعًا شَديدًا، وبالملائكةِ الَّتي تَقبِضُ أرواحَ المؤمِنينَ بسُهولةٍ ورِفْقٍ وسُرْعةٍ، وبالملائكةِ الَّتي تَسبَحُ في أجواءِ السَّمَواتِ وآفاقِ الأرضِ بأمرِ اللهِ تعالى، وبالملائكةِ الَّتي تُسارِعُ إلى تنفيذِ أمرِ اللهِ تعالى، وبالملائكةِ الَّتي تُدَبِّرُ ما وكَّلَها اللهُ بتَدبيرِه؛ لَتُبعَثُنَّ أيُّها النَّاسُ.

ثمَّ ذكَرَ اللهُ تعالى أهوالَ يومِ القيامةِ، فقال: يومَ تَضطَرِبُ الأرضُ وتَتزلزَلُ، فتَتبَعُ تلك الرَّجفةَ رَجفةٌ أُخرى تأتي بَعْدَها، فتَضطرِبُ قُلوبُ الكُفَّارِ المكَذِّبينَ في ذلك اليَومِ؛ مِن شِدَّةِ أهوالِه، وتكونُ أبصارُهم ذَليلةً مُنكَسِرةً. الدرر السنية

ثمَّ حكى ما كان يقولُه المكذِّبونَ في الدُّنيا إنكارًا للبعثِ، فقال: يقولُ المكَذِّبونَ بالبَعْثِ: أنَعودُ أحياءً بَعْدَ مَوتِنا، ونُبعَثُ مِن قُبورِنا؟ كيف نُبعَثُ أحياءً إذا صِرْنا عِظامًا بالِيةً مُتفَتِّتةً؟ قالوا: إنْ حصَلَت تلك الرَّجعةُ بَعْدَ الموتِ فنحن خاسِرونَ إذَنْ.

ثمَّ قال الله تعالى ردًّا عليهم: فإنَّما هي صَيحةٌ واحِدةٌ بلا تَكرارٍ، فإذا النَّاسُ قِيامٌ مِن قُبورِهم أحياءً على ظَهْرِ أرضِ المحشَرِ.

القرآن يصور لنا الانسان الذي يعيش بين الدنيا والآخرة، بين عالم الشهادة وعالم الغيب، ببدنه في الأول وفي قلبه في الثاني، الدنيا في يده وسيلة للوصول للآخرة بلغة منغصة، لكن قلبه متعلق بالحياة الحقيقة الأبدية السرمدية، وهذه وظيفة هذه الآيات العظيمة تبين لنا حقائق الأشياء وترتب لنا الأولويات، فنعلم كيف نعيش في هذه الدنيا عبيد ذليلين خاضعين، لنكون هناك سادة مكرمين، لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ...

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ﴿15﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: وَجْهُ المناسَبةِ بيْنَ هذه القِصَّةِ وبيْنَ ما قَبْلَها مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ اللهَ تعالى حكى عن الكُفَّارِ إصرارَهم على إنكارِ البَعْثِ، حتَّى انتَهَوْا في ذلك الإنكارِ إلى حَدِّ الاستهزاءِ في قَولِهم: قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ [النازعات: 12]، وكان ذلك يَشُقُّ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذكَرَ قِصَّةَ موسى عليه السَّلامُ، وبيَّنَ أنَّه تَحمَّلَ المشَقَّةَ الكثيرةَ في دَعوةِ فِرعَونَ؛ لِيَكونَ ذلك كالتَّسليةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ فِرعَونَ كان أقوى من كُفَّارِ قُرَيشٍ، وأكثَرَ جَمعًا، وأشَدَّ شَوكَةً، فلَمَّا تمَرَّد على موسى عليه السَّلامُ أخَذَه اللهُ نَكالَ الآخرةِ والأُولى، فكذلك هؤلاء المشرِكونَ في تمرُّدِهم عليك، إنْ أصَرُّوا أخَذَهم اللهُ، وجَعَلَهم نَكالًا.

(هَلْ أتاكَ حَدِيثُ مُوسَى) أي: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وما كان مِن أَمْرِه. موسوعة التفسير

قال السعدي: وهذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقق وقوعه. أي: هل أتاك حديثه.

وقال ابن عثيمين: (الخِطابُ للنَّبيِّ ρ، أو لكُلِّ مَن يتأتَّى خِطابُه ويَصِحُّ توجيهُ الخِطابِ إليه، ويكونُ على المعنى الأوَّلِ: هل أتاك يا محمَّدُ؟ وعلى المعنى الثَّاني: هل أتاك أيُّها الإنسانُ؟)

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ﴿16﴾

(إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) أي: حينَ ناداه ربُّه سُبحانَه بالوادي المبارَكِ المطَهَّرِ المسَمَّى طُوًى. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: والوادي هو مجرى الماء، وسماه الله مقدساً لأنه كان فيه الوحي إلى موسى عليه الصلاة والسلام.

قال السعدي: وهو المحل الذي كلمه الله فيه، وامتن عليه بالرسالة، واختصه بالوحي والاجتباء.

قال ابن تيمية: إنَّ اللهَ تعالى تكلَّمَ بالقرآنِ بحُروفِه ومَعانيه، فجميعُه كلامُ اللهِ، وهو سُبحانَه نادى موسى عليه السَّلامُ بصَوتٍ سمِعه موسى؛ فإنَّه قد أخبَرَ أنَّه نادى موسى في غيرِ مَوضِعٍ مِن القرآنِ الكريمِ، كما قال تعالى: هَلْ أتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى، والنِّداءُ لا يكونُ إلَّا صَوتًا باتِّفاقِ أهلِ اللُّغةِ.

كما قال تعالى: وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا [مريم: 52].

وقال سُبحانَه: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى [طه: 11-12].

انظروا إلى العطايا في منحنيات البلايا، والمنح في داخل المحن، فكل بلاء قربك لله فهو عطاء، فالله بلاه بهذا الطاغية ومنحه لذة المناجاة التي تنسيه الآلام والهموم والمصائب، فالحب الصادق يكون بمثابة الدواء يشفى به كل داء.

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿17﴾

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) أي: قال اللهُ لِموسى: اذهَبْ إلى فِرعَونَ مَلِكِ مِصرَ؛ لأنَّه تَجاوَزَ حَدَّه في التَّكَبُّرِ والعُدوانِ والعِصْيانِ. موسوعة التفسير

■"فرعون" لقب الحاكم في مصر القديمة وليس اسما.

قال السعدي: فانهه عن طغيانه وشركه وعصيانه، بقول لين، وخطاب لطيف، لعله ﴿يتذكر أو يخشى﴾.

مع أن التكليف جداً ثقيل، إلا أن القلب إذا امتلئ بالتعظيم أصبح ما دونه هين خفيف، فالحقيقة أننا لا نعاني من جوارحنا، بل من قلوبنا الخاوية، التي اثقلتها محبة الدنيا وزينتها، فأصبحنا نعجز حتى عن الذكر باللسان والله المستعان.

كما قال تعالى: اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى [طه: 42 - 44].

وقال سُبحانَه: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [القصص: 4].

﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿18﴾

(فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى) أي: فقُلْ له: هل لك إلى أن تُطَهِّرَ نَفْسَك مِن دَنَسِ الكُفْرِ والمعاصي. موسوعة التفسير

قال السعدي: هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهي أن تزكي نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان والعمل الصالح؟

أقسام تزكية النفس: ❶التخلية: بمعنى تطهير النفس من أمراضها وأخلاقها الرذيلة ❷التحلية: وهي أن تملأ النفس بالأخلاق الحميدة والصفات الحسنة.

⇦ بعض الناس يشمئز من الأوساخ تلطخ ثيابه، وتأنف نفسه من ذلك الوقت اليسير، ويحتمل أوساخ قلبه وهي أعظم مما يلوث البدن، فبسببها يدخل العباد عذاب الدنيا والآخرة والعياذ بالله.

قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) [الشمس:9-10]

وقال سُبحانَه: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) [الأعلى: 14-15].

قال ابن القيم: قولُه: إِلَى أَنْ تَزَكَّى والتَّزَكِّي: النَّماءُ والطَّهارةُ والبَرَكةُ والزِّيادةُ، فعَرَضَ عليه أمرًا يَقْبَلُه كلُّ عاقلٍ، ولا يَرُدُّه إلَّا كلُّ أحمَقَ جاهِلٍ.

قولُه: إِلَى رَبِّكَ فإنَّ في هذا ما يُوجِبُ قَبولَ ما دلَّ عليه، وهو أنَّه يدعوه ويُوصِلُه إلى ربِّه فاطِرِه وخالِقِه، الَّذي أوجَدَه ورَبَّاه بنِعَمِه جَنينًا وصغيرًا وكبيرًا، وآتاه المُلْكَ، وهو نَوعٌ مِن خِطابِ الاستِعطافِ والإلزامِ، كما تقولُ لِمَن خرَج عن طاعةِ سيِّدِه: ألَا تُطيعُ سيِّدَك ومَوْلاك ومالِكَك؟! وتقولُ للولَدِ: ألَا تُطيعُ أباك الَّذي رَبَّاك؟!

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ ﴿19﴾

(وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى) أي: قُلْ له: وهَلْ لك إلى أن أُرشِدَك وأَدُلَّك على خالِقِك ورازِقِك؛ فتَخشَى سَخَطَه وعَذابَه، بامتِثالِ أوامِرِه واجتنابِ نَواهيه. موسوعة التفسير

قال السعدي: أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه. فَتَخْشَى الله إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع فرعون مما دعاه إليه موسى.

⇦والخشية هي خوف الله -عز وجل- المقرون بالهيبة والتعظيم ولا يصدر ذلك إلا من عالم بالله، (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)، وهذا هو الفرق بين الخشية والخوف أن الخشية عن علم وأما الخوف فهو خوف مجرد ذعر يحصل للإنسان ولو بلا علم.

قال الرازي: قَولُ اللهِ تعالى: وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى يدُلُّ على أنَّ مَعرِفةَ اللهِ تعالى مُقَدَّمةٌ على طاعتِه؛ لأنَّه ذَكَر الهدايةَ، وجَعَل الخَشْيةَ مُؤخَّرةً عنها، ومُفَرَّعةً عليها.

⇦ويدُلُّ على أنَّ الخَشيةَ لا تكونُ إلَّا بالمعرِفةِ، قال تعالَى: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ [فاطر: 28]، أي: العلماءُ به، ودَلَّت الآيةُ على أنَّ الخشيةَ مِلاكُ الخَيراتِ، لأنَّ مَن خَشِيَ اللهَ أتَى منه كلُّ خيرٍ، ومَنْ أَمِنَ اجْتَرَأَ على كلِّ شرٍّ، ومنه قولُه عليه السَّلامُ: ((مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أدلجَ بلَغ المنزِلَ)) صحيح سنن الترمذي.

≅كل من كان بالله أعرف كان منه أخوف، ولطاعته أرغب، وعن معصيته أبعد.

﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ ﴿20﴾

(فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى) أي: فأرى موسى فِرعَونَ المعجِزةَ الكُبرى الدَّالَّةَ على صِدْقِهِ. موسوعة التفسير

■قيل: المرادُ بالآيةِ الكُبرى: اليَدُ -إذ أخرَجها بَيْضاءَ للنَّاظِرينَ- والعصا إذ تحوَّلَتْ ثُعبانًا.

قال ابن عثيمين: إنما بعثه الله بالعصا واليد؛ لأنه كان في زمن موسى السحر منتشراً شائعاً فأرسله الله عز وجل بشيء يغلب السحرة الذين تصدوا لموسى عليه الصلاة والسلام. قال أهل العلم: وفي عهد عيسى -ρ- انتشر الطب انتشاراً عظيماً، فجاء عيسى بأمر يعجز الأطباء، وهو أنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ بإذن الله {وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ} يقف على القبر وينادي صاحب القبر فيخرج من القبر حيًّا. أما رسول الله محمد -ρ- فقد أتى إلى العرب وهم يتفاخرون في الفصاحة، ويرون أن الفصاحة أعظم منقبة للإنسان فجاء محمد -ρ-، بهذا القرآن العظيم الذي أعجز أمراء الفصاحة.

كما قال الله تعالى: (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ) [الأعراف: 107 - 108].

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ ﴿21﴾

(فَكَذَّبَ وَعَصَى) أي: فكَذَّب فِرعَونُ بالحَقِّ الَّذي جاء به موسى، وعصى ما أمَرَه به مِن طاعةِ رَبِّه. موسوعة التفسير

■{فَكَذَّبَ} بالحق (الآيات والمعجزات) {وَعَصَى} الأمر، (أمر الله له بالتزكية).

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ ﴿22﴾

(ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى) أي: ثمَّ تولَّى فِرعَونُ مُجتَهِدًا في محارَبةِ موسى، وصَدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِه. موسوعة التفسير

قال ابن كثير: (قَولُه: ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى أي: في مُقابَلةِ الحقِّ بالباطِلِ، وهو جَمْعُه السَّحَرةَ؛ ليُقابِلوا ما جاء به موسى عليه السَّلامُ مِن المعجزةِ الباهِرةِ).

كما قال تعالى: فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى [طه: 60].

وقال سُبحانَه: قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ [الشعراء: 34 - 37].

﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ ﴿23﴾

(فَحَشَرَ فَنَادَى) أي: فجَمَع فِرعَونُ قومَه وأتْباعَه، وخاطَبَهم بصَوتٍ مُرتَفِعٍ. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: (حشَر النَّاسَ -أي: جمَعَهم- ونادى فيهم بصَوتٍ مُرتفعٍ؛ لِيَكونَ ذلك أبلَغَ في نَهْيِهم عمَّا يريدُ منهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ).

﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ﴿24﴾

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) أي: فقال فِرعَونُ: أنا رَبُّكم الأعلى، فلا أحَدَ فَوقي، وكُلُّ رَبٍّ فهو دُوني. موسوعة التفسير

قال لهم {وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الزخرف: 51، 52].

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ ﴿25﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عن فِرعَونَ أفعالَه وأقوالَه؛ أتْبَعَه بما عامَلَه به

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى) أي: فعاقَبَه اللهُ تعالى عُقوبةَ الآخرةِ بالنَّارِ، وعُقوبةَ الدُّنيا بالغَرَقِ. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: يعني أنه نكّل به في الآخرة وفي الأولى، فكان عبرة في زمنه، وعبرة فيما بعد زمنه إلى يوم القيامة.

قال سبحانه: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر:46]، فهذا نكال الآخرة، ونكال الدنيا الغرق، وهذا قال به جمع من السلف، وهو الذي مشى عليه ابن كثير، وقال به قتادة، والحسن.

⇦ وبعضهم يقول: المراد بالآخرة والأولى من الكلمتين، فالآخرة حينما قال لهم: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}، والأولى: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي}، هذا يقوله ابن جرير -رحمه الله- وروي ذلك عن ابن عباس، ومجاهد، والشعبي، والضحاك.

كما قال تعالى: فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ [الأعراف: 136].

وقال سُبحانَه: وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ [القصص: 39-40].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ ﴿26﴾

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى) أي: إنَّ في ذلك العِقابِ لِفِرعَونَ لَعِظَةً لِمَن يَخافُ اللهَ تعالى وعِقابَه.

موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ [هود: 102-103].

☜لَقَد كَانَ فِرعَونُ نَمُوذَجًا لِطُغيَانِ السُّلطَةِ وَظُلمِهَا، وَمِثالاً لِلإِنسَانِ المُتَجَرِّدِ مِنَ التَّقوَى وَالصَّلاحِ، وَدَلِيلاً عَلَى أَنَّ قُوَّةَ المُلكِ الدُّنيَوِيِّ إِذَا لم تُكسَرْ بِذِلِّ العُبُودِيَّةِ لِلمَلِكِ الدَّيَّانِ، فَإِنَّ مِن عَادَةِ صَاحِبِهَا أَن يَطغَى وَيَبغِيَ وَيَعتَدِيَ، وَأَن يَظلِمَ العِبَادَ وَيُظهِرَ فِي الأَرضِ الفَسَادَ، قَالَ سبحانه: (وَفِرعَونَ ذِي الأَوتَادِ * الَّذِينَ طَغَوا فِي البِلادِ * فَأَكثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ) [الفجر: 10- 12]، وَهِيَ صُورَةٌ تَتَكَرَّرُ مَعَ كُلِّ سُلطَةٍ ظَالِمَةٍ، والطُّغَاةَ فِي غَالِبِ الأَمرِ لا يُجدِي مَعَهُم نُصحٌ وَلا يَنفَعُهُم إِرشَادٌ بسبب فساد قلوبهم.

⇦ (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى) [النازعات: 26] اللهُ -سبحانه- حِينَ يُمهِلُ هَؤُلاءِ الطُّغَاةَ وَيُمِدُّهُم بِأَسبَابِ القُوَّةِ، وَيَمنَحُهُم مَزِيدًا مِنَ التَّمَكُّنِ وَالقُدرَةِ، فَإِنَّمَا يَفعَلُ ذَلِكَ سبحانه كَيدًا بِهِم وَمَكرًا، لا حُبًّا لَهُم وَلا نَصرًا، وَمِن ثَمَّ فَإِنَّهُ يَفجَؤُهُم تعالى بِأَمرِهِ عَلَى حِينِ غِرَّةٍ، وَيَأخُذُهُم أَخذَ عَزِيزٍ مُقتَدِرٍ وَهُم فِي غَفلَةٍ، فَعَن أَبِي مُوسَى -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ρ-: "إِنَّ اللهَ يُملِي لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لم يُفلِتْهُ " ثم قَرَأَ: (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) [هود: 102] [رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسلِمٌ].

✉النفس كم هي خطيرة لما لها من تأثير على حياة الإنسان ومصيره في الآخرة، فقد اتفق علماء السلف على أن النفس قاطع وحاجز بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنك لن تستطيع أن تصل إلى مرضاة الله -عز وجل- والنجاة يوم القيامة إلا بعد تهذيبها والسيطرة عليها، أقسم الله أقساما كثيرة ومتوالية على أن صلاح العبد وفلاحه منوط بتزكية نفسه، (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) [الشمس: 9-10].

✉كم هي خطيرة تلك النفس لأن نتيجة صلاحها وفسادها لا يؤثر على حياة الفرد ومصيره فحسب، بل يؤثر على المسلمين عامة وهذا ما نلمسه في واقعنا فما وصل حال الأمة إلى ما نرى من التدني والتأخر إلا لما تغيرت النفوس وتمردت على شرع ربها_ إلا من رحم الله_ ففي خضم شؤون الحياة المعاصرة، وكثرة مشاغلها وتعدد متطلباتها، قد ننسى أن نتعاهد أنفسنا بالتربية و التزكية، ومن ثم تقسو القلوب، ونتثاقل عن الباقيات الصالحات، ونركن إلى متاع الدنيا وزخرفها، وننسى قول العليم : ((قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى* وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)) [الأعلى : 14-15] .

✉وكان الأنبياء عليهم السلام يدعون إلى تزكية النفوس، فهذا موسى عليه السلام يقول لفرعون ((هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)) [النازعات: 18- 19].

وقال تعالى عن نبينا محمد -ρ-: ((هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)) [الجمعة :2].

✉وتزكية النفس سبب الفوز بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، كما قال عز وجل: ((وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى)) [طه: 75-76]. أي طهّر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له واتبع المرسلين فيما جاءوا به من خبر وطلب.

وكان من دعائه -ρ- :" اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها" رواه مسلم

✉ولن تستطيع أن تصل إلى ما تريد إلا إذا انتصرت على نفسك وكبحت جماحها.

🗐قال ابن القيم رحمه الله تعالى: " لا يستطيع الإنسان أن يحقق المعالي من الأمور إلا بمجاهدة نفسه وجعلها عدوة له ".

🗐 يقول الغزالي رحمه الله: اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خُلِقَتْ أمارةً بالسوء مبالغةً في الشر فرارةً من الخير، وَأُمِرْتَ بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك.

☜التخلية قبل التحلية، هناك أدران يجب إزالتها من قلوب الموحدين، حتى تصبح طاهرة لاستقبال كلام الله وذكره وأمره ونهيه.

■المراد بالتزكية: إصلاح النفوس وتطهيرها، عن طريق العلم النافع، والعمل الصالح، وفعل المأمورات وترك المحظورات، ولا سبيل إلى ذلك إلى ذلك إلا بالوحيين القرآن والسنة.